زكي نجيب محمود

إنما الأمم الأخلاق

القسم الأول

مفاهيم أخلاقية

نستطيع من جانبنا التأكيد على أن المفكر والعالم الكبير الدكتور زكي نجيب محمود [1] يعدّ واحدًا من العلامات الدالة على جدية / حيوية

(١) هو زكي نجيب محمود، ولد العام ١٩٠٥م بإحدى قرى محافظة دمياط، وتلقى أول تعليمه بواحد من الكتاتيب التي كانت منتشرة في مصر وقتها، فتعلم مباديء اللغة العربية والحساب وما إلى ذلك من علوم أولية كانت تدرس في هذا الكُتّاب. ونظرًا لكثرة تنقلات والده لظروف عمله، انتقل زكي نجيب محمود إلى القاهرة، ثم إلى السودان، فنال في القاهرة قسطًا من التعليم الأولي، ثم أكمل في الخرطوم تعليمه الابتدائي والثانوي. ويرجع الفضل في إتقان محمود الإنجليزية إلى أن مناهج التعليم في الخرطوم كانت تعتمد على مثال المناهج التي تدرس في المدارس الإنجليزية. وبعودته إلى مصر نال محمود من مدرسة المعلمين العليا درجة الليسانس في الآداب والتربية العام ١٩٣٠م، وبدأ فورًا كتابة المقالات في أكثر من مجلة ثقافية وفي أكثر من موضوع. العام ١٩٣٤م أصبح عضوًا في لجنة التأليف والترجمة والنشر، وفي العام ١٩٣٦م سافر إلى إنجلترا في بعثة صيفية مدتها ستة شهور، ثم سافر إليها مرة أخرى العام ١٩٤٤م لدراسة الدكتوراة في الفلسفة حيث أعفي من إعداد الماجستير نظرًا لحصوله العام ١٩٤٥م على البكالوريوس الشرفية من الطبقة الأولى في الفلسفة، وهذه درجة علمية تعفي صاحبها من الحصول على الماجستير للتسجيل للدكتوراة التي سجلها بعنوان «الجبر الذاتي» وتمت إجازتها من جامعة الملك بلندن العام ١٩٤٧م. عاد لمصر ليعمل في قسم الفلسفة الفترة من العام ١٩٤٧م حتى بلوغه سن التقاعد العام ١٩٦٥م، واستمر بكلية الآداب أستاذًا متفرغًا ثم أستاذًا غير متفرغ حتى وفاته العام ١٩٩٣م. شغل عدة مناصب علمية وثقافية، وقام بالتدريس في غير جامعة داخل الوطن وخارجه، وترك لنا إرثًا كبيرًا من الكتب المؤلفة في الفلسفة والفكر والثقافة والأدب، وأيضًا المترجمة والمعربة، وأيضًا مجموعة من المقالات التي لا تقل أهمية عن الكتب. وقد قام باحثون بإعداد رسائل علمية ومقالات عن زكي نجيب محمود دليلًا على مكانة هذا المفكر في حياتنا الثقافية، وبالإمكان الرجوع إلى المزيد من التفاصيل حول هذه الجزئية في الكتاب التذكاري عن زكي نجيب محمود، وقد أشرف عليه وصدّر له الأستاذ الدكتور محمد عاطف العراقي، وصدر العام ٢٠٠١م عن دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

العقل المصري / العربي / الإسلامي، ذلك لأن محمود ظل حياته – كلها – مهمومًا بقضايا وطنه وأمته، ساعيًا – حتى في أخريات عمره – إلى انتشال أمته المصرية / العربية / الإسلامية من الهوة السحيقة التي نعلم أن قلبه – على رقته – كان ينفطر حزنًا ويتفتت كمدًا، إذ يجد وطنه في هذه الوهدة تابعًا بعد قيادة، آخذًا بعد عطاء [1].

ولما كنا قد استطعنا أن نضع زكي نجيب محمود في مقدمة رواد التنوير والنهضة، وفي مقدمة المنادين بـ «تثوير الدين» في مصر والعالم العربي / الإسلامي، فقد استطعنا – كذلك – أن نلمس السبيل التي سلكها محمود كي ينهض بالأمة ويحقق لها ما كان يأمل أن يحقق من ريادة وقوة ومنعة عبر إصلاح ونهضة يقومان على ركائز اجتماعية تتأسس – بدورها – على الفكر الذي هو واحد من أهم تجليات العقل الذي هو أعدل الأشياء قسمةً بين الناس .

(١) عن شدة المعاناة التي عاشها محمود مهمومًا بحال أمته يقول: لا أظنني كتبت سطرًا واحدًا من كل ما كتبت لاهو أو لأدخل المرح على نفس من ضاقت نفسه بالهموم، لا ... بل إني لو رأيت من خلا صدره من الهم لشككت في قدرته الحاسة، إذ لابد أن يكون حسه قد خشن وغلظ وتبلد، ذلك الذي يرى تلكم الأغلال التي قيدت أقدامنا ولا تتأزم له نفس أو يتأرق له فؤاد، ولما كنت واحدًا من آحاد الناس يرى في قومه أقدامًا مغلولة وعقولًا مقيدة، فقد جاء ما كتبته وكأن سن القلم الذي كتبتها به مسمار ألهبته النار، وكأنما القلب الذي نفث احرارة في الكلمات كان أتونًا يستعر. راجع. د. زكي نجيب محمود: عن الحرية أتحدث. دار الشر ق القاهرة ١٩٨٦م ط١ ص٣٣٥، ٣٣٦

إنه من السهل الميسور أن يجد المرء في كل كتابات مفكرنا ما يدل على تمسكه بالعقل، ذلك الذي لا يلغي العاطفة / الوجدان، فهو – محمود – من أشد أنصار العقل على العاطفة وذلك في الكلام والكتابة، أما في مجالات السلوك فهو بعيد عن ذلك، لا يقوى على احتماله [١].

وهذا يعني أن محمود يقوم بتقسيم النشاط الإنساني إلى دائرتين كبيرتين: دائرة العقل، ومجالها الكلام / العمل / الكتابة، ودائرة العاطفة، ومجالها العلاقات الإنسانية، ولا يجب أن تجور إحدى الدائرتين على الأخرى.

يقول: يجب أن يلتزم الإنسان في حياته العلمية بمنطق العقل في صرامة لا تجد فيها العاطفة ثغرةً لها تتسلل منها فتضعف ذلك المنطق العقلي بميولها وأهوائها، ولم يكن ذلك تهوينًا من شأن العواطف الإنسانية وأهميتها البالغة في حياة الإنسان، لكن لكل شيء مجاله ؛ فإذا كنا لا نطالب الفنان أو الأديب بالتزام المنطق العلمي في إبداعه الأدبي أو الفني، فكذلك لا ينبغي لنا أن نطالب الباحث العلمي بأن يقحم شيئًا من وجدانه في مجاله العقلي [٢].

إن محمود لم يجعل منشطًا من مناشط الحياة إلا طرح فيه رأيًا: إما محللًا وإما ناقدًا.

---

(١) د. زكي نجيب محمود: أيام في أمريكا. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة . ط٢ ص ٢٦

(٢) د. زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف. دار الشروق. القاهرة ١٩٨٧م . ط٣ ص ٢٤

والتحليل – بحسب منهجه – ليس إلا زيادة في الوضوح سعيًا وراء إبراز المعاني الحقيقية للفظ هنا أو عبارة هناك .

يقول محمود واصفًا كيفية تحقق نضج العقل الإنساني: هو قدرة على تحليل الأفكار، وخصوصًا ما هو مؤثر وفعال منها في حياة الإنسان تحليلًا لا يراد به فقط أن يكون الإنسان على علم تفصيلي بمعنى الفكرة المعينة التي يستخدمها نبراسًا لحياته ودستورًا يسلك على أساسه، بل يراد به كذلك ألا نقع في ذلك الخطأ الخطير الذي يميل بصاحبه إلى الحكم على موقف معين بأحد الضدين: فإما هو ذلك الضد منهما، وإما هو الضد الآخر متجاهلًا درجات الطيف التي تملأ الفجوة بين الضدين، لأن الأضداد تمثل الأطراف القصوى التي قد لا يكون لها وجود في الواقع لأنها أقرب إلى المثل العليا التي يسار إليها ولكن لا يوصل لها، وكل ما في مستطاع البشر هو أن يتجه في سعيه نحو الأمثل من الطرفين، وعلى أساس هذه التدرجات الوسطى يكون الحكم العقلي الناضج[1].

والنقد ليس إلا دليل اهتمام بمن يتوجه إليه الناقد بنقده سعيًا إلى نفي القبيح والإبقاء على الحسن، ما يعني – في نهاية الأمر – القدرة على البقاء الإنساني الفردي والجماعي في صورة المنعة والقوة والغلبة بعيدًا عن صورة الضعف والهزال والهزيمة.

(١) د. زكي نجيب محمود: بذور وجذور. دار الشروق. القاهرة ١٩٩٠م ص ٤٠٨

يقول محمود مبينًا عمل / وظيفة النقد: لقد كنت من أشد الناقدين نقدًا للقيم كما هي سائدة اليوم في مصر، ومن شاء فليقرأ كتبي «جنة العبيط» و «شروق من الغرب» و «الكوميديا الأرضية» وغيرها .. لكنه نقد صاحب البيت الذي يعرف للسجادة النفيسة نفاستها فيثور بالغضب إذا ما رأها قد تعفرت لغفلة حراسها [١].

ولسنا نضيف جديدًا لو أكدنا أن زكي نجيب محمود قد عاش في دنيانا – ورحل –[٢] وقلبه معلق بمجتمعه وناسه، هذا المجتمع المصري / العربي / الإسلامي الذي تغيا زكي نجيب محمود بث روح أخلاقية جديدة فيه، ودفع دماء جديدة نقية في شرايينه كي تعاود الحياة كما تليق بمجتمع مصري عربي إسلامي: منتصرًا قويًا.

يقول: إن ميراثنا الحضاري والثقافي هو الذي يشجع الكاتب[٣] على دعوته نحو معاصرة كاملة ؛ لأن المعاصرة الكاملة إنما هي بمثابة الجمع بين شروق وشروق، شروق من هناك – الغرب – للعلم الجديد الذي هو أساس الحضارة الجديدة، وشروق آخر من هنا – الشرق – فيه كل ما هو مطلوب بعد ذلك للحياة، لحياة الإنسان الكامل، ولو كنا في حالة انعدام

---

(١) د. زكي نجيب محمود: قيم من التراث. دار الشروق. القاهرة ١٩٨٩م ط٢ ص ٣٨٢ وما بعدها.

(٢) توفي زكي نجيب محمود في التاسع من سبتمبر العام ١٩٩٣م، وكنتُ أحدَ من حضر أجراءات / مراسيم وداعه الأخير حتى وارياه الثرى في مقبرته بحي التونسي بالإمام بالقاهرة.

(٣) يعني نفسه.

حضاري وثقافي لما صحت لنا دعوة إلى يقظة، لأنك لا توقظ الموتى، والأمر في هذا شبيه بنعاس النائم، فمهما بلغ النعاس من درجات العمق فلابد أن تبقى في النائم بقية من وعي ضئيل، ونحن إذ نوقظ النائم بصيحة أو بهزة فإنما نستند إلى بقية الوعي الكائنة فيه [١].

ويقول: إن الولاء الصحيح يا أصدقائي لا يكون لشخص بقدر ما يكون لقضية أو لفكرة أو لعقيدة دينية، الولاء يكون لله سبحانه وتعالى لأنه مالك يوم الدين، الولاء يكون للوطن الذي بغيره ينهدم أهم أركان الهوية في هذه الدنيا، الولاء يكون لأي مجموعة تمثل فكرة لما دوام رأنتمي إليها عضوًا فيها وعاملًا مع غيري على تحقيق تلك الفكرة، الولاء هو دمج الذات الفردية في ذات أوسع منها وأشمل ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءًا من أسرة أو من جماعة أو من أمة أو من الإنسانية كلها، ولكن هذا الدمج إذا صدر عن إيمان وإخلاص وجب على الفرد أن يحميه حتى وإن اقتضى الأمر تضحيةً بالروح [٢].

ومن هنا يصبح الولاء قيمة أخلاقية عليا، لأننا لو حللنا معنى الولاء – على حقيقته – فسوف نجده «أساسًا للأخلاق كلها، لأنه ما من فعل يؤسس على القواعد الأخلاقية إلا وهو يتجه نحو غاية أردناها وأخلصنا لها»[٣].

---

(١) د. زكي نجيب محمود: عن الحرية أتحدث. ص ٣٤

(٢) د. زكي نجيب محمود: قيم من التراث. ص ٣٨٩: ٣٩١

(٣) د. زكي نجيب محمود: المرجع السابق. نفس الموضع

ثمة إذن مجال على قدر كبير من الأهمية يجب أن نوجه إليه الأنظار – لو أردنا إصلاحًا – هو مجال الأخلاق، تمامًا كما يجب أن نوجه الأنظار – لو أردنا إصلاحًا – إلى مجال العلم وتقنياته، من حيث إن الأخلاق بدون علم لا وجود لها، إذ الحرية من أهم مداخل الأخلاق، وهي – الحرية – لا تكون «شيئًا إذا لم تكن هي قدرة الإنسان الحر على أن يملك زمام الموقف الذي يجد نفسه فيه، على أن امتلاك الإنسان لزمام الأمر حيال أي موقف من مواقف الحياة إنما يتفاوت قوةً وضعفًا بمقدار ما لدى الإنسان من علم بدقائق الموقف المذكور حتى يستطيع التصرف فيه وعلى هدى»[1].

والعلم بدون أخلاق «ربما – لو ترك بدون ملجم – يكون سبيلًا يؤدي بالإنسانية إلى الدمار، لكن قوته الذاتية كفيلة للإنسان بالسمو إلى الكمال، إذ هو ألجم العلم – في التطبيق – بالقيم الضابطة والتي مصدرها – الأول – هو الدين بمعناه العام وبمعناه الإسلامي بصفة خاصة»[2].

ونحن نعلم أن لزكي نجيب محمود الكثير من الأطروحات الفكرية التي عالج فيها الجوانب العلمية كما يراها هو وبحسب عقليته الناقدة وبصيرته النافذة، كما نعلم كذلك أن له الكثير من الأطروحات الفكرية التي عالج فيها الجوانب الأخلاقية، فإذا كنا سنكتب – فيما يلي – عن الأخلاق عند زكي نجيب محمود، فما دفعنا إلى ذلك إلا معرفتنا بالأهمية

(١) د. زكي نجيب محمود: رؤية إسلامية . دار الشروق. القاهرة ط١ ١٩٨٧م ص٧، ٨

(٢) د. زكي نجيب محمود: رؤية إسلامية. ص ٦

الكبيرة التي يعلّقها زكي نجيب محمود على الأخلاق سواء بالنظر إلى الفرد أو بالنظر إلى المجتمع.

إن المصلح - أيًا كان توجهه - لا بد أن ينظر إلى الفطرة الإنسانية، تلك التي تتجه - بطبيعتها - ليكون الإنسان مؤمنًا بإله ما، ولما كان اهتمام مفكرنا الكبير منصبًا - في المقام الأول - على مجتمعه المصري فالعربي فالإسلامي[1]، نجده وهو يضع الدين - الإسلامي - في جانب أكثر أهمية، لما للدين من قوة دفع كبيرة من شأنها تصحيح الخلل البادي في سلوكيات الفرد وأولويات المجتمع[2].

يقول زكي نجيب محمود: أنا في جنتي الحارس للفضيلة، أرعاها من كل عدوان، لا أغض الطرف عن مجانة المجان، والعالم من حول جنتي يغوص إلى أذنيه في خلاعة وإفك ورذيلة ومجون، دعهم يطيروا في الهواء ويغوصوا تحت الماء، فلا غناء في علم، ولا خير في حياة بغير فضيلة، دعهم يحلقوا فوق رؤوسنا طيرًا أبابيل ترمينا بحجارة من سجيل، فليس

---

(١) يقول زكي نجيب محمود مبينًا انتماءاته: هناك ما يحدد دوائر الانتماء التي على أساسها يتدرج هذا الانتماء من حيث التبعات الاجتماعية تدرجًا يجعلني مصريًا أولًا وعربيًا ثانيًا وفردًا من أبناء العالم الإسلامي ثالثًا، وهو تدرج لا أقيمه على درجات «الأهمية» لهذه الأجزاء، بل أقيمه على الأمر الواقع الذي يجعل الإنسان مسؤولًا أمام القانون عن وطنه الخاص قبل أن يكون مسؤولًا عن المجالات الأوسع نطاقًا، والتي ينتمي إليها جميعًا بدرجات. راجع في ذلك. د. زكي نجيب محمود: رؤية إسلامية. ص ٥، ٦

(٢) د. زكي نجيب محمود: الكوميديا الأرضية. دار الشروق. القاهرة. ط٣، ١٩٨٩م ص ٥: ١٣

الموت في رداء الفضيلة إلا الخلود، إني والله لأشفق على هؤلاء المساكين جارت بهم السبل فلا دنيا ولا دين [١].

وواضح من النص السابق أن زكي نجيب محمود يضع الأخلاق وفضائلها في مرتبة تسبق العلم، إذ لابد من خلق - أولًا - ثم يأتي بعده العلم، فإذا أراد البعض أن يكون التقدم العلمي سبيلًا إلى انتهاك آدمية الإنسان وتمزيق أواصر إنسانيته وتضييع قيمه وتمييع فضائله التي تميزه عن غيره من المخلوقات، أقول إنه إذا أراد البعض للعلم - وتطبيقاته - أن يأتي على هذا الشكل، فإن زكي نجيب محمود يبين لنا وجهة نظره في ذلك كله بقوله «كلا ... لا أريد لهذا الغرب اللعين أن ينفذ إلى جنتي، ولا لمدنية الغرب أن تفسد مدينتي، وإنه لتغنيني عن سيارته حمارتي، وتكفيني دون طائرته بغلتي، ما دمت عن رذيلته في حصن من فضيلتي»[٢].

ونستطيع أن نتبين لمفكرنا زكي نجيب محمود رؤية أخلاقية ذات بعدين: فبعد يتجه نحو الفرد، وبعد يتجه به نحو الجماعة أو المجتمع، وكأننا بذلك نؤسس مداخل للأخلاق الفردية وأخرى للأخلاق الاجتماعية أو الأخلاق الجمعية، وعيًا من جانب زكي نجيب محمود أن الإنسان - الفرد - لا قيمة له إلا وهو منضم لمجتمع ما، صغيرًا كان - كالأسرة - أو كبيرًا - كالمجتمع - وكذلك فإن المجتمع ما هو إلا

(١) د. زكي نجيب محمود: جنة العبيط. دار الشروق. القاهرة ١٩٨٢م ص ٥٢، ٥٣

(٢) د. زكي نجيب محمود: جنة العبيط. ص ٥٦

عبارة عن مجموع أفراده، ولا يحق للمجتمع أن يجور على الإنسان الفرد تحت أي من التبريرات .

وتتضافر أقوال زكي نجيب محمود مدلّلةً على موقفه هذا الداعي إلى اعتبار الفرد والمجموع:

فيقول: لا يمكن أن نتحدث عن الفرد إلا من حيث هو عضو في جماعة، بحيث يكون مستحيلًا أن يفهم حريته وحقوقه إلا حين تكون هذه الحرية وتلك الحقوق اجتماعية في أهم خصائصها[١].

ويقول: انفراد الفرد في عزلة مطلقة يقتله، وذوبان الفرد في غيره ذوبانًا مطلقًا يفنيه، فلابد له من اتصال وانفصال كالنقطة في الخط والخلية في الجسم الحي وكالجملة في الصفحة والصفحة في الكتاب[٢].

ويقول: إن الولاء دمج الذات الفردية في ذات أوسع منها وأشمل، ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءًا من أسرة أو من جماعة أو من أمة أو من الإنسانية كلها[٣].

(١) د. زكي نجيب محمود: مجتمع جديد أو الكارثة. دار الشروق. القاهرة ط ٤ ١٩٩٠م ص٢٤٩ .

(٢) د. زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين. دار الشروق. القاهرة. ط١ ١٩٩٠م ص ٢٧ .

(٣) د. زكي نجيب محمود: قيم من التراث. ص ٣٩١

الأخلاق بين النسبية والإطلاق

يهمنا – هنا – أن نشير إلى أن الناحية الفكرية عند زكي نجيب محمود قد شهدت ثلاثة أطوار[١] هي: المرحلة التقليدية، ومرحلة الوضعية المنطقية، ومرحلة الأصالة والمعاصرة[٢].

ويشير زكي نجيب محمود إلى ذلك بقوله «أعترف هنا بأنني قد سرت الطريق على مرحلتين، كان لي في المرحلة الأولى تصور معين، ثم أدخلت على ذلك التصور تعديلًا مهمًا في المرحلة الثانية، وليس في هذا التحوا ما يعيب أحدًا إلا من تشبث برأيه حتى لو ظهر بطلانه، والأمر في هذه التصورات – كما قلت – ليس أمر معادلات رياضية أو قوانين علمية مما لا تعرف لنفسها إلا طريقًا واحدًا في العصر الواحد، بل هو أمر اجتهادات قوامها آراء وظنون ؛ فأما المرحلة الأولى من حياتي الفكرية فقد كنت فيها لا أجد بديلًا لصورة الحضارة الغربية كما هي في عصرنا، لأنها هي حضارة القوة والعلم والإبداع والمغامرة وتحقيق السيادة على الطبيعة فتسخرها تسخيرًا لا يقتصر نفعه على قلة من الناس، بل نفعها ليعم حتى يصل إلى أصغر كوخ في أقصى الأرض، لكنني عدت بعد تلك المرحلة الأولى فرأيت أنها وإن تكن ضرورية ضرورة الحتم

(١) يرى البعض أن زكي نجيب محمود قد مر بمرحلتين في حياته الفكرية، وزميلتنا الدكتورة منى أبو زيد تقسم حياة زكي نجيب محمود الفكرية إلى ثلاث مراحل. راجع في ذلك.د. منى أحمد أبو زيد: الفكر الديني عند زكي نجيب محمود. دار الهداية. القاهرة. ط١ ١٩٩٣م ص ١٥، ١٦

(٢) د. منى أبو زيد: المرجع السابق. ص ١٦ : ٤٣

الذي لا يدع مجالًا للاختيار، إلا أنها ليست وحدها كافية، إذ لابد أن تضيف إليها كل أمة ما يميزها من سمات ثقافية هي التي حددت لها هويتها أبًا عن جد، ثم عن جدود يتعاقبون جميعًا جيلًا بعد جيل ليكونوا «تاريخًا» واحدًا موصول الحلقات»[1].

وتأسيسًا على ذلك، فلابد أن يختلف تصور زكي نجيب محمود للأخلاق في مرحلته المتأخرة عنه في مرحلته المتقدمة / الأولى ؛ فإذا كانت الأخلاق عنده قد ارتبطت في المرحلة المتقدمة بالمنفعة أو القيمة – ومن ثم فهي نسبية متغيرة – فإنها في المرحلة المتأخرة عنده لم تعد ترتبط بأي من هذا كله، ومن ثم فقد صارت مطلقة، ذلك لأن الأخلاق حين ترتبط بالقيمة أو المنفعة، وتكون – من ثم – نسبيةً فإنها – في الغالب الأعم – تكون قاصرة على الوجود العيني، أو تكون موقوفة على الناحية الوجودية المتشيئة، على حين أنها حين تكون أخلاقًا مطلقة يكون لها البعد الاجتماعي الوجودي العيني، ويكون لها – أيضًا – البعد المطلق الميتافيزيقي.

ونحن نعتقد – من جانبنا – أننا في غير حاجة إلى التأكيد على أن زكي نجيب محمود يقيم وزنًا، ووزنًا كبيرًا، لحرية الإرادة الإنسانية تفعل ما تريد أن تفعله، وتترك ما تريد أن تتركه، ليحق لنا – في نهاية الأمر – أن نجعل الإنسان مسؤولًا عن فعله إذا فعل، وعن تركه إذا ترك !!!.

---

(١) د. زكي نجيب محمود: قيم من التراث. ص ١٦٧

يقول زكي نجيب محمود: كيف بالإنسان الذي جعله الله مسؤولًا عما يفعل، لا يشفع له أن يكون قد جرى في فعله مجرى السالفين، وهذه حقيقة توشك أن تكون من البداهة الأولية إلا أن يكون المقصود بمحاكاة الأواخر – نحن – للأوائل – السلف – محاكاة لا تدع مجالًا للإبداع، ولا للإرادة الحرة تختار ليقع عليها تبعة اختيارها[1].

والأخلاق عند زكي نجيب محمود تعد مقدمة أساس وركيزة أولية من ركائز الثقافة العربية / الإسلامية، ومن ثم المصرية، وهي – الأخلاق – تعد مقومًا أساس من مقومات بنية العقل المسلم، ولهذا جاء قوله «إن الأخلاق طابع مميز للثقافة العربية والإسلامية إذا ما أجرينا موازنة بينها وبين ثقافات أخرى: فينما نجد من الثقافات الأخرى ما يضع ارتكازه على التحليل العلمي لظواهر الطبيعة، ومنها ما يدير أرجاءه حول محور العسكرية والقتال والغزو: منتصرًا مرة ومدحورًا أخرى، ومنها ما يجعل الأولوية للإبداع الفني من عمارة ونحت وتصوير، نجد الثقافة العربية والإسلامية قد أقامت بناءها على ركيزة أساسية: هي مباديء الأخلاق»[2]. وجاء قوله «إن الخاصة التي ميزت الحضارة الإسلامية من سائر الحضارات هي أنها أدارت رحاها حول محور الأخلاق، فإذا كانت حضارات أخرى قد أرست قواعدها – في المقام الأول –

(١) د. زكي نجيب محمود: قيم من التراث. ص ٥، ٦

(٢) د. زكي نجيب محمود: قيم من التراث. ص ١٠

على الفن، أو على العلم، أو غير ذلك من أسس كالزراعة أوالتجارة أو الصناعة، فإن الحضارة الإسلامية قد اختارت الأخلاق أساسًا لها»[١].

وواضح مما سبق أن زكي نجيب محمود يقسم القيم الإنسانية للثقافات تقسيمات مختلفة: فمن المجتمعات الإنسانية ما يميز ثقافتها الناحية العلمية الجافة، ومنها ما يميز ثقافتها الطابع العسكري الصارم، ومنها ما يميز ثقافتها الناحية الجمالية الرقيقة الناعمة، ومنها – وهذه هي مجتمعاتنا العربية والإسلامية – ما يميز ثقافتها الطابع الأخلاقي.

ولما كانت حضارتنا، العربية / الإسلامية، تستند – في المقام الأول – على الإسلام، فإن الدكتور زكي نجيب محمود يؤسس لذلك في غير موضع، وفي غير مؤلَّف ... فنقرأ له «إن الإسلام هو أهم ما في تراثنا، ورسالة الإسلام أخلاقية في المقام الأول»[٢]. وتصبح الأخلاق – بعد هذا كله – هي «فن التعامل مع الآخرين، أو هي تلك المباديء التي تحكم طرق التعامل بين الناس»[٣].

(١) د. زكي نجيب محمود: عن الحرية أتحدث. ص ٢٣٢

(٢) د. زكي نجيب محمود: عن الحرية أتحدث. ص ٣٤١

(٣) د. منى أبو زيد: الفكر الديني. ص ٢٢٥

القيم الأخلاقية ونتائجها

إذا كنا قد أشرنا – فيما سبق – إلى أن زكي نجيب محمود قد مر بمرحلتين فكريتين في عمره – أو ثلاث – فبداهة لابد أن تختلف نظرته إلى الأخلاق في مرحلة عن الأخرى، فمفكرنا واحد من أهم الداعين إلى الوضعية المنطقية[١]، ذلك المذهب الفلسفي الذي كان لابد أن يترك أثرًا كبيرًا في توجهه الأخلاقي – على الأقل في مرحلته الفكرية الأولى – ما جعل الأخلاق تتسم عنده – في هذه المرحلة الفكرية – بالنفعية، وصارت صلاحية الفكرة – أية فكرة – في «مدى تحقيق النتائج النافعة من ورائها»[٢]، وهذا يتضمن القول بأن الأخلاق – ومجالها الخير – إنما هي «مجرد ضرب من» الرؤية «التي توحي بها ثقافة الشخص الذي يطلق تلك القيم على المواقف»[٣].

---

(١) جاء في المعجم شرحًا لمفهوم الوضعية المنطقية «هي حركة فلسفية تعرف باسم» حلقة فيينا «أنشأها شليك عام ١٩٣٦م، من بين أعضائها: كارناب، وفيجل، وجوديل، ونيوراث، وفيسمان. وهي – تاريخيًا – تأثرت بالتجريبية التقليدية والوضعية، وبالمنهج العلمي التجريبي كما طرحه علماء القرن التاسع عشر، وبالمنطق الرمزي، والتحليل المنطقي للغة. وتتميز الوضعية المنطقية بالتركيز على المنهج العلمي واللغة ووحدة العلم، وكذلك تتميز بالقول بأن المعرفة الواقعية تجريبية بالضرورة وصدقها يعتمد على مبدأ التحقيق. راجع: المعجم الفلسفي. إعداد د مراد وهبة. دار الثقافة الجديدة. القاهرة. ط٣. ص ٤٧٣

(٢) د. منى أبو زيد: الفكر الديني. ص ٢١٩

(٣) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا. دار الشروق. القاهرة. ط ٢ ١٩٨٣م ص ل

إن زكي نجيب محمود قد أفرغ جهده كله – في هذه المرحلة – لبيان كيف أن مجالي الخير والجمال[١] هما من المجالات الوجدانية الشعورية، لأن «العالم الخارجي – عالم الأشياء – لا خير فيه ولا جمال، كما أنه لا شر فيه ولا قبح، فهذه كلها كلمات دالة على شعور المتكلم نحو الأشياء من حب أو كراهية بحكم تربيته ونشأته»[٢]. ومن ثم يصبح العلمان اللذان يدرسان هذين المجالين – وهما علم الأخلاق وعلم الجمال – من العلوم التي لا يمكن «أن تصنف ضمن العلوم الصورية (= الرياضية) أو العلوم الطبيعية، لأنهما علمان وجدانيان انفعاليان شعوريان، ومن ثم لا يمكن وصف قضاياهما بالصدق أو الكذب، وقد نتج عن ذلك أن الأحكام الأخلاقية أصبحت مجرد أحكام تعبر عن رغبات وأحاسيس إنسانية، وهي أحاسيس لا حصر لها، ومن ثم تعتبر كل

---

(١) تهتم الفلسفة بثلاثة مباحث «الوجود والمعرفة والقيم ؛ فمبحث الوجود (الأنطولوجيا ONTOLOGY) يبحث في الوجود على الإطلاق بما هو موجود دون التقييد أو التحديد. ومبحث المعرفة (الإبستمولوجيا EPISTEMOLOGY) يبحث في إمكانية العلم بالوجود أو عدم المعرفة. ومبحث القيم (الإكسيولوجيا AXIOLOGY) يبحث في المثل العليا أو القيم المطلقة، وهي ثلاث قيم: قيمة الحق، وقيمة الخير وقيمة الجمال , TRUTH , GOODNESS , AND BEAUTY . ؛ فعلم المنطق يضع الأسس اللازمة لدراسة الحق من خلال مجموعة من القواعد التي تعصم مراعاتها العقل من الوقوع في الخطأ. وعلم الأخلاق يضع المثل العليا التي يجب السير بالسلوك الإنساني على هداها. وعلم الجمال يضع المستويات التي يقاس بها الشيء الجميل. وكل هذه العلوم تعد علومًا معيارية NORMATIVE لأنها تبحث فيما ينبغي أن يكون، وليست علومًا وضعية POSITIVE تهتم بما هو كائن بالفعل. راجع د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة. دار النهضة العربية. القاهرة. ط ٦ ١٩٧٦م ص ٨٦: ٨٩

(٢) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا. ص ص

وجهة نظر أخلاقية مشروعة، وهذا الموقف قد أدى إلى النسبية في فهم الأحكام الأخلاقية»[١].

ونتيجة لذلك فقد وجدنا أتباع هذا المذهب – الوضعية المنطقية – ينكرون – أصلًا – وجود أحكام أخلاقية، ليقرروا أنه ليس هناك أية قضايا أخلاقية، بل إن الفلسفة الأخلاقية صارت عندهم «لا تنطوي على أي بحث في الوقائع، بل هي بحث مزعوم فيما هو خير وما هو شر، أعني فيما يصح عمله وما يجوز عمله»[٢].

إن زكي نجيب محمود يعلن – في مرحلته الفكرية تلك – أن القوانين الأخلاقية إنما هي مجرد قوانين «كغيرها من القوانين، هي وليدة الحياة الواقعية، فما قد ثبت نفعه جعلناه قانونًا خلقيًا ينظم سلوكنا، وما قد تبين على مر التاريخ أنه ضار حذفناه من قائمة الأعمال المقبولة، ولما كان النفع والضرر يتغيران بتغير الظروف، وجب علينا ان ننظر إلى مباديء الأخلاق على أنه نسبية لا مطلقة، ويجب أن نكون على استعداد لأن نغير منا ما لابد من تغييره لئلا يقف هذا عقبة في سبيل التقدم مع ما يقتضيه الزمن والحضارة»[٣].

---

(١) د. منى أبو زيد: الفكر الديني. ص ٢٢٠

(٢) د. زكريا إبراهيم: المشكلة الأخلاقية. مكتبة مصر. القاهرة. ط ٢ ص ٦٧، وللمزيد من التدليلات على هذا الموقف. راجع د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا. ص ١١٠: ١٣٩

(٣) د. منى أبو زيد: الفكر الديني. ص ٢٢٠، ٢٢١

وهذا يعني – في نهاية الأمر – ربطًا ضروريًا بين الفكرة الأخلاقية وما تجلبه هذه الفكرة من منافع، فتصير القيمة الأخلاقية صحيحة حين تدفع إلى سلوك صالح مفيد يغير الأوضاع الفردية والاجتماعية إلى الأحسن، وإلا فإنها تكون باطلة ... ولهذا جاء قول زكي نجيب محمود «إن القيم جزء من ذات الفرد، وإن العالم الخارج عن هذه الذات لا خير فيه ولا جمال، إنما هو عالم من الأشياء، فإذا أراد أحدنا أن يقف وقفة العالم الذي ينطق كلامًا ذا معنى، كان لابد له من قصر الحديث على وصف ما يراه فعلًا وما يسمعه وما يحسه بسائر حواسه، دون إضافة شيء من ذات نفسه إلى الوصف، وإلا فقد أراد لنفسه شيئًا غير العلم ومجاله»[1].

من الفائت يتبين لنا أن زكي نجيب محمود يقسم الفلاسفة الأخلاقيين قسمين: فهناك من يرى أن أية عبارة نقولها عن مبدأ أخلاقي إنما هي عبارة موضوعية تصف كائنًا موجودًا بصرف النظر عن أحاسيس القائل أو الواصف ومشاعره، هذا ... ويقول زكي نجيب محمود عن هذا القسم من فلاسفة الأخلاق: عند هذا الفريق من فلاسفة الأخلاق أن المعنى الأخلاقي كائن قائم ذو خصائص معينة، فإذا جاء الإنسان ووصف معنى من هذه المعاني نتيجة لبحث قام به في الأشياء الخارجية أو في ذات نفسه فهو إنما يصف حقيقة لم يكن له يد في إيجادها ولن يكون له يد في تغييرها، وإذن فمن وجهة نظرهم هذه تكون القيمة موضوعية تدرك وتوصف بعبارة وصفية علمية[2].

(١) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا. ص ١١٢

(٢) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا. ص ١١٣، ١١٤

وهناك من يرى أن العبارات الأخلاقية إنما هي مجرد جمل تعبيرية تصف الشعور الذاتي لقائلها، وبالتالي فهي لا تزيد عن كونها «تعبيرًا عما في نفس القائل من شعور ذاتي خاص به، وعندئذ يستحيل أن يقف السامع منه موقف المصدق أو المكذب لما يقول، لأنه لا سبيل إلى مراجعته فيما يقول، وكيف يراجعه وهو لم يقل عن العالم المشترك بينهما شيئًا ؟»[١].

ثم إن زكي نجيب محمود يحسم هذا الأمر – وهو في مرحلته الفكرية الأولى – بقوله «وإلى هذا الفريق – الثاني – ينتمي صاحب هذا الكتاب – يقصد نفسه – وهو يحاول بهذا الذي يكتبه أن يقنع القارئ بهذه الوجهة من النظر»[٢].

(١) د. زكي نجيب محمود: المرجع السابق. ص ١١٤

(٢) د. زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا. ص١١٤

القيم الأخلاقية وإطلاقيتها

إلا أن زكي نجيب محمود قد أضاف – في مرحلته الفكرية الأخيرة – إلى نظرته القديمة تلك بعدًا جديدًا، هو القول بإطلاقية القيم الأخلاقية لارتباطها بما هو ثابت ودائم ... وهو الدين، ولهذا جاء قوله «إن مصدر المباديء الأخلاقية إنما هو كذلك المتناهي الذي رسخت صورته في القلوب ثم تأيدت تلك الصورة وازدادت رسوخًا عندما نزل وحي من رب العالمين إلى الأنبياء والرسل لينشروها في الناس، حتى أصبحت الصور السلوكية المطلوبة لا تستند في صوابها على نفعها، نعم ... إنها بالفعل نافعة، لكن الذي يجعلها «مباديء» هو أن نزل بها وحي من الله سبحانه وتعالى، وأنه لتنتج لنا نتيجة بالغة الأهمية في هذا الموقف، وهو أن «مباديء الأخلاق» لا تتبدل ولا تتغير ولا تزول، في حين أن من اقتصر على جانب المنفعة في رؤيته للأخلاق مستعد لاستبدال مبدأ بمبدأ آخر إذا أثبتت له خبرة الحياة أن الصورة السلوكية القائمة لم تعد تصلح ؛ فالعربي – والمسلم – متميز بجانبين:

فهو – أولًا – يجعل مصدر الأخلاق روحيًا.

وهو – ثانيًا – يجعل مبادئها ثابتة لا تتحول ولا تتبدل، حتى إذا خُيل للإنسان أن مبدأ معينًا لم يعد يؤدي بالناس إلى منفعة ظاهرة قال العربي – والمسلم – إن الله أعلم من الإنسان بما ينفع ويضر»[1].

---

(١) د. زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين. ص ٤٦، ٤٧

يقول: إن الأحكام الخلقية عند العربي – والمسلم – تهبط إليه من السماء أوامر تطاع، وليست هي – كما هي الحال عند معظم فلاسفة الغرب – مأخوذةً لنتائجها النافعة، أو لكونها تعمل على إسعاد الناس، أو لأن الخبرة البشرية قد دلت على صلاحيتها، بل هي أوامر ونواه نزلت مع ما أنزل على الأنبياء وحيًا يلتزم بها المؤمنون حتى قبل أن يفحصوها من زوايا المنفعة والسعادة، وبهذه النظرة تكون القيم الأخلاقية عند العربي – والمسلم – أمورًا مطلقة لا يقال عنها إنها نسبية بالقياس إلى مكان معين وعصر معين، حيث يجوز أن تتغير كلما تغير المكان أو تغير العصر، وكذلك هي عند العربي – والمسلم – حقائق موضوعية وليست مرهونة بميول ذاتية، وهي – في موضوعيتها تلك – أقوى رسوخًا من الحقائق العلمية ذاتها، لأن هذه الحقائق العلمية لا ضير علينا من تغييرها كلما ثبت بطلانها، وأما الحقائق الأخلاقية فيتكيف لها الإنسان وهي لا تتكيف له ولظروف حياته[1].

إن كلامنا في أن الدكتور زكي نجيب محمود قد «أضاف» بعدًا جديدًا إلى نظرته القديمة إلى القيم الأخلاقية، تلك التي كان يتبناها قبل، يعني عدم رفض المذهب القديم برمته، كما يعني وجود «جديد» يتراكم على «القديم».

إن الدليل على ذلك هو قول زكي نجيب محمود نفسه «إن طالبةً وطالبًا قد سألاني سؤالًا واحدًا أثار اهتمامي ... وهو: ألا ترى أن موقفك قد طرأ عليه في الفترة الأخيرة تغير حاد ؟ فبعد أن كنت تدعو في إصرار إلى منطق «العقل» وما يتبعه من حقائق «العلم»، ثم ما يترتب على العلم من صناعة وتصنيع، أخذت

(١) د. زكي نجيب محمود: في مفترق الطرق. دار الشروق. القاهرة. ط ١ ١٩٨٥م ص ٢٧٧

تعلو عندك نبرة «القلب» وما ينبع منه على طريق العقائد والمشاعر. ولقد كان السؤال بالغ الأهمية عندي، إذ ما أفصح عنه السائلان قد يكون هو ما يدور في صدور كثيرين ممن يعنيهم ما أكتبه، فرأيت من الخير أن أوضح موقفي الفكري الذي لم أجد – حتى الآن – ما يدعوني إلى تغييره، لا لأنني أراها جريمةً أن يغير الرجل من أفكاره ما تثبت له الأيام بأنه خطأ واجب التصحيح، بل لأن الأمر الواقع هو أنني لم أتحول عن موقف رأيت صوابه واستمسكت به ودافعت عنه»[1].

وبهذا يكون زكي نجيب محمود قد أضاف إلى نظرته القديمة عنصرًا جديدًا... وهو العقيدة.

يقول: إنني مصري عربي مسلم، أنا مصري يريد الخير لبلاده، وأنا عربي لم يعد يرى لنفسه وجودًا إلا وهو في حضن العروبة، وأنا مسلم لا يبيع مثقال ذرة من عقيدته بملك الدنيا وما فيها[2].

(١) د. زكي نجيب محمود: قيم من التراث. ص ٢٤٢

(٢) د. زكي نجيب محمود: قيم من التراث. ص ١٣٤

القسم الثاني

مفاهيم تطبيقية

الشعائر ... ضابطةٌ للقيم الأخلاقية

إن أهم قضية فكرية تصادفنا في المذهب الأخلاقي عند زكي نجيب محمود هي «قضية الشخصية العربية الجديدة ومقوماتها، فماذا تكون معالمها وقسماتها؟ إننا بإزاء ماض طويل مجيد غني بآثاره، وكذلك نحن بإزاء حضارة علمية صناعية لم يكن للعالم كله عهد بمثلها، فماذا نأخذ وماذا ندع ؟ إننا ما كدنا نلتقي في أوائل نهضتنا الحديثة بطلائع العلم الجديد حتى انقسمنا على الفور شعبًا ثلاثًا:

أولاها جفلت من العلم الجديد الوافد فرفضته لائذة بالماضي ومجده، وفرحت به الثانية فرحة الأطفال اندفاعًا وتفاؤلًا ؛ فأقبلت عليه إقبالًا أنساها كل شيء ما عداه، وأما الثالثة فهي التي ألقت بالبصر إلى بعيد لترى أمل البعث مقصورًا على دمج الجانبين في ثقافة عربية جديدة، لا هي بالموروث وحده، ولا هي الحضارة العلمية وحدها. وقد لبثت أمدًا طويلًا أسلك نفسي في زمرة المؤمنين بالعلم الجديد وحده مستغنيًا به عن كل موروث قديم، وأنا اليوم أغير من وجهة نظري لأرى استحالة تامة في أن تتكون شخصية متميزة – سواء أكانت شخصية فرد أم كانت شخصية أمة بأسرها – من العلم الجديد وحده، لأن العلم عام ومشترك، وإذن فلابد أن يجيء التميز من خصائص أخرى، فماذا تكون هذه الخصائص المميزة إن لم تكن مستمدة من أسلوب الحياة وموازين التقويم التي تجعل عند الناس شيئًا أهم من شيء، وفكرةً أنبل من فكرة، ولما كان هذا الأسلوب وهذه الموازين لا تخلق كل ساعة وكل يوم، بل هي على

شيء من الدوام النسبي، فدوامها النسبي هذا معناه أنها مأخوذة من الماضي، وهذا – بدوره – هو الذي يحفظ للأمة استمراريتها في سيرة متصلة، مرتبط حاضرها بماضيها»[1].

إن الشخصية التي يسعى زكي نجيب محمود إلى تكوينها هي تلك الشخصية الفردية – بمعنى التفرد والتميز عن الآخرين – وتكون هذه الشخصية حرة مريدة، ومن ثم ستكون هذه الشخصية مسؤولة، ولننظر – معًا – كيف يرى زكي نجيب محمود الشعائر الدينية وأثرها في تكوين هذه الشخصية، تلك الشعائر التي يجعلها زكي نجيب محمود ضابطةً وقيّمة على غيرها من نتائج الحياة البشرية العلمية والعملية على السواء ... ولهذا جاء قوله «إن القوة تدور مع العلم وجودًا وعدمًا، والعلم – لو ترك غير ملجم – لربما كان سبيلًا يؤدي بالإنسانية إلى الدمار، لكن قوته الذاتية كفيلة للإنسان بالسمو

---

(١) د. زكي نجيب محمود: وجهة نظر. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٦٧م ص هـ، و. وقد سبق وأوضحنا أنه بشأن قضية تعامل تراثنا الفكري مع الغرب، قامت ثلاثة اتجاهات:

اتجاه ماحق. بمعنى أنه غير مبالٍ بأيٍ من قواعد الانضباط الوطني ؛ فهو طفيلي على مستويات الاقتصاد والاجتماع والتعليم ... وغير ذلك من مستويات.

واتجاه لاحق. بمعنى أنه غير مبالٍ بتجارب الآخرين، بل قد نجده محتقرًا لهذه التجارب، فهو ممجد لماضيه بصورة تضخيمية مَرَضيّة، والماضي عنده «خزينة» بها خطط لحل كل مشكلاته ... وعلى كل الصعد.

واتجاه سابق. بمعنى أنه متوازن مع ما كان وما هو مُعاش وما هو مأمول، فهذا الاتجاه لا هو ضخّم، ولا هو دمّر، ولا هو قدّس، فهو يرى أن هناك تراثًا واجب التقدير، وهناك حاضرًا واجب الاعتبار !!! وما نأسف له أنه هذا الاتجاه لم يزل، برأينا، مجرد مشروع غائم مضبب لم تتحدد – بعد – قسماته حتى بين مثقفينا.

إذا هو ألجم العلم – في التطبيق – بالقيم الضابطة والتي مصدرها الأول الدين بمعناه العام أولًا، وبمعناه الإسلامي بصفة خاصة»[١].

والنص السابق يبين لنا – في وضوح – كيف ينظر زكي نجيب محمود إلى الدين – بوجه عام، والإسلام بوجه خاص – باعتباره المنتج الأول للقيم الأخلاقية، ما يؤهلها لأن تكون إطلاقية، إذ استمدت قيمتها من مطلق، وهذه القيم المطلقة ستكون سياجًا يحفظ الإنسان من نتاج علمه إذا ترك هذا النتاج العلمي دون ضابط من قيم.

وأول ما نتبينه عند زكي نجيب محمود وهو بصدد بناء الشخصية المسلمة السوية بعد ربطه بين الأخلاق والدين، أن الفعل الأخلاقي قد صار يصدر عن الإنسان باعتباره – الفعل – واجبًا، بعد أن كان يصدر عن الإنسان باعتباره – الفعل – مصدرًا للذة أو المنفعة أو باعثًا على السعادة ... وفي هذا جاء قوله «تكمن أصول القومية الثقافية في وجهة النظر العامة إلى الكون وإلى الإنسان، مما يتيح للفرد الواحد أن ينتمي إلى أمته العربية انتماءً بالبعد الزمني، كما ينتمي إليها بالوجود في مكان جغرافي ذي حدود أرضية معلومة، وثقافات الشعوب إنما تختلف بعضها من بعض أساسًا في وجهات النظر العامة قبل أن تختلف في تفصيلات تلك الثقافات ؛ فمثلًا قد يكون التصور الأخلاقي عند غيرنا هو أن مباديء الأخلاق هي حصيلة خبرات بشرية طويلة، فما قد ثبت بالخبرة الطويلة أنه في صالح الناس أثبتوه في قائمة الفضائل التي يجب على الأفراد مراعاتها في سلوكهم العملي خلال حياتهم الجارية، وهي وجهة من النظر تجعل الإنسان

(١) د. زكي نجيب محمود: رؤية إسلامية. ص ٦

جزءًا من الطبيعة لا يعلو عليها، وأما مباديء الأخلاق في تراثنا – نحن – الثقافي فهي مباديء فرضت فرضًا على الطبيعة البشرية لتعلو بها وتتسامى»[١].
وجاء قوله «يجب أن نجعل للعلوم الطبيعية منهجًا، ولما يتصل بالحقيقة المطلقة منهجًا آخر: أما منهج العلوم الطبيعية فقائم على مشاهدة الحواس، وعلى إجراء التجارب، وعلى سلامة التطبيق، فلا يعنينا من الدنيا إلا ظواهرها، بحيث لا يجوز لأنظارنا – عندئذ – أن تنفذ إلى ما وراء تلك الظواهر، لأنها بالنسبة للعلوم ليس لها ما وراء، فهي الظواهر وحدها، وأعني ما يظهر للحواس الراصدة، هي الظواهر وحدها التي نتعقبها رصدًا ووصفًا وتحليلًا وتصنيفًا لنستخلص منها ما عساه أن يكون هنالك من قوانين مطردة تنظم حدوثها ومجراها، وأما منهج ما وراء الوقائع الصماء من حقائق، كالقيم الخلقية مثلًا، فذلك شيء آخر قد لا نلجأ فيه إلى شهادة الحواس ولا إلى التجارب العابرة بقدر ما نلجأ فيه إلى إدراك البصيرة أو إلى إملاء الوحي أو إلى ما يسري بين الناس من عرف وتقليد»[٢].

ثم إن زكي نجيب محمود – وهو يجعل للمعرفة البشرية ثنائية منهجية ضرورية: فمنهج للعلوم الطبعية، ومنهج للقيم وما شابهها من أمور تقع فيما وراء الوقائع العلمية الجامدة – يرى «أن الأخذ بثنائية النظر على هذا النحو قد يفتح أمامنا آفاقًا مغلقة، فهي ثنائية تضع الإنسان على قدميه فوق الأرض وترفع رأسه إلى السماء، أي أنها تتيح له أن يعيش لهما معًا: فعلى الأرض يسعى

(١) د. زكي نجيب محمود: هذا العصر وثقافته. دار الشروق. القاهرة. ط ١ ١٩٨٠م ص ٥٠
(٢) د. زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي. دار الشروق. القاهرة. ط ٥ ١٩٧٨م ص ٢٨٢

علمًا وعملًا بكل ما يتطلبه العلم من دقة، وما يتطلبه العمل من صبر ودأب، وفي السماء يهتدي بالمثل التي ترسم أمامه لتكون له على الطريق أهدافًا وغايات. إن هذه الثنائية تجعل العلم ينبثق من الأرض وظواهرها، وتجعل القيم غيثًا ينزل من السماء ووحيها، العلم نسبي يتغير مع التقدم، والقيم مطلقة تشخص إليها الأبصار»[١].

إن القيم الأخلاقية العليا – وهي تشكل الشخصية المصرية العربية المسلمة – لابد أن تستقي / تأخذ مصادرها من الدين باعتباره ميزانًا إلهيًا يمنح الإنسان القدرة على التمييز بين ما هو حلال وما هو حرام، بين ما يأخذ وما يدع، حيث إننا نشاهد أنه «من الوجهة العملية النفعية الصرف، وكذلك من الوجهة الإنسانية الخلقية، لا مناص للفرد من الناس إلا أن يجعل لنفسه مبدًا ما يكون هو الميزان أو الفيصل الذي يقرر له ماذا يختار في كل مرة تتنازعه فيها رغبات متعارضة، والأغلب أن الدين هو مصدر تلك المباديء التي تفصل بين الحلال والحرام، وفي الحلال تفصل بين ما هو أولى بالاختيار مما عداه، وإلى جانب الدين، في ذلك، يكون للعرف والتقاليد والثقافة القومية السائدة فعلها في إقامة الموازين ؛ فإذا استقامت لفرد ما موازين الحكم – من جهة ما – كان له «ذات، أو شخصية» معروفة له وللناس بما يميزها من طرائق السلوك وأسس الاختيار»[٢].

(١) د. زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي. ص ٢٨٤، ٢٨٥

(٢) د. زكي نجيب محمود: قيم من التراث. ص ٩٦

من تجليات العقيدة
الفن ... الأخلاق ... الحضارة

قد سبق أن أشرنا إلى أن هناك مميزات محددة تحد كل حضارة على حدة، وقلنا إن هناك من الحضارات ما يكون المميز لها هو الجانب العلمي بحسب مفردات منهجه الجاف، وهناك من الحضارات ما يكون المميز لها هو الجانب العسكري الصارم، وهناك من الحضارات ما يكون المميز لها هو الجانب الفني الإبداعي، لكن حضارتنا العربية / الإسلامية أهم ما يميزها هو الجانب الأخلاقي[1]، ولا يعني هذا أن حضارتنا العربية / الإسلامية قد أغفلت الجانب العلمي أو الجانب الإبداعي الفني أو الجانب العسكري، بل هي حضارة تحتضن كل هذه المقومات ثم تضيف إليها الضابط القيمي المتمثل في مباديء الأخلاق.

ولهذا نجد زكي نجيب محمود وهو يربط بين نهوض / قيام الحضارة – أي حضارة – لسبب واحد جوهري بنيت عليه هذه الحضارة أو تلك وبين أن يكون هذا السبب – نفسه – هو سبب انهيار هذه الحضارة إذا ما أغفله رجالها، ولذلك كان لابد أن تتنوع دعائم أي حضارة تريد لنفسها أن تكون حضارة مستمرة، مع عدم إغفال وجود عنصر أساس وجوهري

---

(١) نشير – هنا، وعلى سبيل المثال لا الحصر – إلى بعض المسميات الكلامية الوصفية التي نجدها ترتد إلى اشتقاقات أخلاقية ... مثل: كلمة «جار» وهي كلمة مأخوذة من الإجارة والنجدة، وكلمة «صديق» وهي كلمة مأخوذة من الصدق.

لكنه لا يكون عنصرًا وحيدًا. وحضارتنا العربية / الإسلامية إنما تأسست – وتتأسس – على دعائم القيم الأخلاقية[1] – كسبب رئيس وجوهري – ويضاف إلى هذه القيم الأخلاقية دعائم أخرى علمية وفنية وعسكرية.

والدكتور زكي نجيب محمود يستند – هنا – إلى أدلة دينية / نقلية من خلال تفسيره – الواعي – لبعض آيات القرآن الكريم، ذلك وهو بصدد الكلام عن خصائص ومقومات يريدها – ويراها – دعامات للحضارة العربية / الإسلامية.

إن زكي نجيب محمود يضع مفهومًا أوليًا لقيام – وزوال – الحضارة – أي حضارة – فيقول: لكل حضارة من حضارات الإنسانية مذاق خاص وإلا لما تميزت من سواها، ولابد أن تكون تلك الخاصة المميزة للحضارة المعينة هي التي عملت على نشأة تلك الحضارة وظهورها، وذلك عندما كانت تلك الخاصة المميزة في عنفوانها وقوتها، ثم لابد

(١) الكلام عن الأخلاق عند زكي نجيب محمود يستحق الإشارة فيه – بثقة – إلى النزعة الصوفية الزاهدة عنده تأسيسًا على علمنا أن التصوف خلق، ولهذا قال الصوفية: من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء. وعن النزعة الصوفية عند زكي نجيب محمود راجع د. سعيد مراد: زكي نجيب محمود آراء ومواقف. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٩٤م ص ٣٨،٣٧

– كذلك – أن تكون تلك الخاصة المميزة نفسها عندما أصابها ضعف – وفساد – هي علة اندثار الحضارة التي تميزت بها[١].

ويجب، أن يكون معلومًا أنه إذا قلنا إن الحضارة العربية / الإسلامية قد تأسست – وتتأسس – على الأخلاق، فإن هذا القول لا يعني – أبدًا – نفيًا لقيم العلم أو الفن أو العسكرية، فكل ما هنالك أن الحضارة العربية / الإسلامية اجتمعت لها العلوم والفنون، لكن أهم ما كان بارزًا فيها هو الجانب الأخلاقي، فالحوادث الأخرى – المؤهلة لقيام الحضارة – قد تجتمع في كل حضارة ولكن بمقادير تتفاوت هنا أو هناك، ونحن «إذ نميز الحضارة المعينة بخاصة ما فإنما نريد أن تكون تلك الخاصة – أكثر من سواها – ركيزة أولى يقام عليها البناء، وبناء الحضارة الإسلامية ركيزته الأخلاق»[٢].

ونحاول – الآن – أن نعرض بعضًا من الدلالات الأخلاقية في سورة كريمة من سور المصحف الشريف، وهي سورة «الفجر» وذلك من خلال تصورات زكي نجيب محمود للقيم الأخلاقية اعتمادًا على المصدر الديني.

وقبل أن يدخلنا البيان القرآني الكريم – من خلال مفاهيم زكي نجيب محمود– إلى عالم الأخلاق ليوقظ فينا همة الواجب، وما الواجب إلا نداء العقل، نقول إنه قبل الدخول إلى عالم الأخلاق هذا يجدر بنا أن

(١) د. زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف. ص ٢٠٠

(٢) د. زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف. ص ٢٠١

ننظر إلى تقديم القرآن الكريم الكلام في سورة «الفجر» بسياق استفهامي تنبيهي ... وهو: هل في ذلك قسم لذي حجر؟[١] ثم ... ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد ؟[٢].

ولعله من بلاغة النسق القرآني أنه في كلمات قليلة العدد يقدم لنا تصوره لمفهوم الحضارة – وهو مفهوم قائم أساسًا على مفاهيم أخلاقية – ذلك حين يقدم لنا ثلاث حضارات سبقت الإسلام، وواضح من النص القرآني أن هذه الحضارات الثلاثة قد كانت دعائمها مؤسسة على مفاهيم وتصورات فنية وجمالية:

فحضارة «عاد» برعت في بناء المدن فأقامت مدينة «إرم» بشكل قد لا يتصوره خيال، فهذه المدينة أقيمت من قصور عالية لها طوابق متعددة، وكانت هذه الطوابق العالية تقام على «عمد» هذه العمد الأعمدة تقام – بدورها – على أسطح الطوابق السفلى ما يبدو للناظر من بعيد وكأنها غابة كثيفة من جذوع صخرية قوية.

---

(١) سورة الفجر: آية رقم ٥، والحجر هو العقل لأنه يحجر الإنسان أي يمنعه من الوقوع في الزلل فهو حاجر. راجع المعجم الوسيط. طبعة مجمع اللغة العربية. القاهرة. ط٣ ج ١ ص ١٦٤

(٢) سورة الفجر: الآيات رقم ٦: ١٠ وراجع في التفسير ناصر الدين البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. مكتبة ومطبعة الحلبي. القاهرة. ط ٢ ١٩٦٨م/ ١٣٨٨هـ ج ٢ ص ٥٥٦ وما بعدها.

و«ثمود» عاشت في واد صخري قد لا تجد فيه دافعًا لبقاء – فناء – حيوان أو نبات، وكانت معجزة هذه الحضارة – حضارة ثمود – النحت في هذه الصخور ليقيموا بيوتهم وقصورهم.

و«فرعون» وحضارة الفراعنة قد كانت في المهارة المعمارية وقد تبدّى تبدّى ذلك كله في المسلاّت والتماثيل والمعابد.

وإذا أوضحنا أن هذه الحضارات قد قامت على أسس فنية جمالية، إلا أنها لم تقرنها بأخلاق النبل والتعاطف والرحمة بين الإنسان والإنسان !! ولهذا جاء في القرآن الكريم «الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد»[1].

ولعل سبب انهيار هذه الحضارات أن أهلها لم يكونوا يكرمون اليتيم، ولا يطعمون المسكين.

ويبين لنا زكي نجيب محمود ميزة الحضارة العربية / الإسلامية: فهي حضارة «أخلاق» بالدرجة الأولى، ثم هي حضارة علم وفن بالدرجة الثانية، ومن ثم تقوم الحضارة العربية / الإسلامية على مقوم أساس هو بناء الضمائر في النفوس قبل أن تعنى، أو تهتم، ببناء مدينة في فخامة إرم، أو تبدي براعة في تشكيل الصخر العصي بيوتًا وتماثيل، أو ترفع البناء

(١) سورة الفجر: الآيات رقم ١١: ١٤

أوتادًا للهياكل والمعابد ؛ فبالضمائر الحية التي ترسم لأصحابها كيف يكون التعامل الودود بين الناس ... تطمئن النفوس[١].

ولهذا فإن السورة الكريمة – الفجر – تنهي صورتها التي قدمتها لأهل البصر – والبصيرة – بالقول القرآني «يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»[٢]، ذلك لأن النفس التي رفعت – في دنياها – جوانب الأخلاق وقيمها جنبًا إلى جنب مع جوانب العلم والعمل، صح لها أن تكون نفسًا مطمئنةً.

ومن التفسير السابق يتضح لنا جواز أن «تضيف الحضارة الإسلامية إلى نفسها فنًا وعلمًا، وما شاءت أن تضيف، لكنها إذا لم تميز نفسها بركيزة الأخلاق، فربما بقيت «حضارة» لكنها لن تكون – أبدًا – إسلامية»[٣].

(١) د. زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف. ص ٢٠٢، ٢٠٣

(٢) سورة الفجر: الآيات رقم ٢٧ : ٣٠

(٣) د. زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف. ص ٢٠٣

من تجليات العقيدة
الـ «أنا» ... والـ «هُم»

تتأسس مباديء الفهم في الإسلام بحسب منظومة عقدية وأخرى تشريعية، وما نريد بيانه – هنا – هو أسس المنظومة العقدية ..أو العقائد ثم صلتها بالجوانب القيمية في حياة المسلمين.

وأول مداخل العقيدة في الإسلام يقوم على أساس الحديث النبوي الشريف «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا»[1]... ونحن نستطيع أن نبين – في هذا الصدد – كيف فض الدكتور زكي نجيب محمود الأسرار عن هذه الأسس لتبدو في صورة ناصعة إذ تؤسس للمسلمين دستورًا – حقيقيًا – للقيم الأخلاقية، وذلك ببث هذه الأسس في حياة المجتمع لا أن تكون مجرد كلمات تتلى.

---

(١) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري. بهامشه صحيح مسلم بشرح النووي. دار الكتاب العربي. بيروت. طبعة بالأوفست عن الطبعة السابعة. المطبعة الأميرية. بولاق. مصر ١٣٢٣هـ مج ١ ج ١ ص ٨٥

ونعتقد من جانبنا أن أهم قيمة رفعها الإسلام – بعد التوحيد[١] هي اعترافه – واعتزازه – بالآخر[٢] حتى صار صحيحًا القول «كلما شدد المسلم قبضته على عقيدته الإسلامية ازداد شعورًا بالآخرين لا من حيث وسائل تستغل بل من حيث هم غايات في أنفسهم»[٣].

---

(١) القول بالتوحيد وإعلان أن الله تعالى إله واحد لاشريك له، هو أول «المعلوم من الدين بالضرورة» حيث إنه أهم أصل من أصول الإسلام ؛ فالتوحيد المطلق شعار الإسلام الأول ... وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة: «أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل: لا أشهد، قل: إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون» (سورة الأنعام: آية رقم ١٩) و «وقال الله: لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد، فإياي فارهبون» (سورة النحل: آية رقم ٥١) و «أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل: الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار» (سورة الرعد: آية رقم ١٦) و «وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» (سورة البقرة: آية رقم ١٦٣) والتوحيد عقيدة إلهية أرسل الله تعالى بها رسله أجمعين، ومن ثم فلا خلاف بين ما جاء به موسى وحيًا من عند الله تعالى، وما قاله عيسى، وما قاله محمد – عليهم جميعًا الصلاة والسلام – وإلى تلك القضية تشير الآية القرآنية الكريمة «شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (سورة الشورى: آية رقم ١٣) لكن تبقى للإسلام ميزته الكبرى في أنه «لا شيء أكثر وضوحًا وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد» و «للإسلام أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم» راجع في ذلك. جوستاف لوبون: حضارة العرب. ترجمة. عادل زعيتر. مطبعة الحلبي. القاهرة. ص ١٢٥

(٢) نشير – هنا – إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده» تدليلًا على عظم جرم التفريط في حقوق الآخرين.

(٣) د. زكي نجيب محمود: في مفترق الطرق. ص ٨٣

وليس بعيدًا عن الحقيقة في الإسلام أن نؤكد أن «نظرةً مدققةً متعمقةً إلى كل ركن من أركان الإسلام الخمسة تعلمنا – ضرورة – أن يتصور المسلم نفسه دائمًا لا على أنه فرد مستقل منعزل، بل على أنه – كذلك – عضو في جماعة»[١].

والركن الأول من أركان الإسلام الخمسة هو الشهادتان: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وهنا نجد أن هذه الشهادة قد تضمنت الاعتراف بثلاث حقائق: أن هناك شاهدًا يعلن شهادةً ما، ومشهودًا له بهذه الشهادة، و«آخر» تعلن الشهادة في حضرته اعترافًا بقيمته وإقرارًا بوجوده على المستوى الوجودي والمستوى المعرفي، ولا فرق بين أن يكون هذا الـ «آخر» فردًا واحدًا أو أن يكون مجتمعًا أو أن يكون أمة.

إن زكي نجيب محمود لا ينظر إلى الشهادة على أنها مجرد ألفاظ ينطق بها المسلم وكفى، بل ينظر إليها على أساس ضرورة تحوّلها إلى «عالم من المعاني الحية نعيشها بعقول مدركة، فلو أننا جعلنا من كلمات الشهادة أبوابًا نفتحها لندخل في رحاب القيم التي وراءها لألفينا أنفسنا في تيار دافق من معان تتضافر وتتسق حتى ينشأ من دعائمها بناء فكري كامل أخلاقيًا واجتماعيًا»[٢].

---

(١) د. زكي نجيب محمود: في مفترق الطرق. ص ٦٠

(٢) د. زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف. ص ٢٥٧

وأول – بل وأهم – حقائق «الشهادة» أن هناك إلهًا واحدًا لا شريك له، وذلك من قول المسلم «أشهد أن لا إله إلا الله»، وثاني هذه الحقائق أن هناك شاهدًا يعلن هذه «الشهادة» ... وهو المسلم، وثالث هذه الحقائق أن هناك «آخرين» – الفرد أو المجتمع – يهم من يعلن الشهادة أن يعرفوا أنه مسلم.

والحقيقة الكبرى في «الشهادة» هي الإعلان أن الله واحد لا شريك له، وأهم ما تتميز به الذات الإلهية المقدسة من الصفات غير المتناهية، وهي صفات متوحدة في نسق واحد، لأن الموصوف بها – الله – واحد.

إن صفات الله تعالى يمكن تقسيمها إلى: صفات ثبوت، وصفات فروع ؛ بمعنى أن هناك صفات بالنسبة لغيرها تعد صفات إيجابية، وما عداها يعد نتاجًا عن هذه الصفات التي اعتبرناها أصولًا. وهذه الصفات – صفات الأصول – سبع صفات ... هي: القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام[1].

يقول الدكتور زكي نجيب محمود: إنني حين أشهد بوجود الذات الإلهية فإنني أشهد بذلك نفسه ضرورة وجود العلم والإرادة والقدرة ..إلى آخر

(١) يجعل المعتزلة الصفات الأساس ثلاث صفات: القدرة والعلم والحياة. وتجعلها الأشاعرة سبع صفات حيث تضيف الإرادة والكلام والسمع والبصر. هذا وقد أفضنا في الكلام عن هذه الصفات الإلهية المقدسة في صورة أوسع وأشمل. راجع في ذلك، وفي مواضع مختلفة، كتابينا أبو رشيد النيسابوري وآراؤه الكلامية والفلسفية. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. ط ١ ٢٠٠٥م، الإلهيات عند ناصر الدين البيضاوي. دار الهداية. القاهرة. ط ١ ١٩٩٤م

مجموعة الصفات التي تدل عليها أسماء الله الحسنى، وهذه المجموعة من الصفات هي لله تعالى على نحو مطلق بغير حدود، وهي كذلك للإنسان على نحو نسبي محدود ؛ فلله تعالى العلم كله وللإنسان بعضه[١]، ولله التقدير على إطلاقه وللإنسان تقدير محدود وهكذا ... ومعنى ذلك أن شهادة أن لا إله إلا الله هي – بالتالي – شهادة بضرورة أن تتحقق مجموعة من الصفات بصورة كاملة في الإله وبصورة ناقصة في الإنسان، فمن لم يعمل على أن يكون في حياته عالمًا مريدًا قادرًا مهيمنًا عزيزًا جبارًا ... إلخ كانت شهادته باللفظ دون المعنى[٢].

وثاني حقائق الشهادة هي الذات الناطقة بها، هذه الذات الإنسانية التي مهما تشابهت مع غيرها من «ذوات» بشرية فلابد أن تكون ذاتًا واحدة، لأنه» مهما يكن من أمر هذا التشابه أو التجانس بين أفراد الإنسان، فلن يكون الفرد الإنساني «ذاتًا» إلا إذا بقيت له بقية يختلف بها عن جميع من عداه، وهي بقية لها كل الأهمية والخطورة لأنها هي التي تحدد هويته،

---

(١) مسألة التباين بين علم الله تعالى وعلم الإنسان ليست قاصرةً على الناحية الكمية: لله تعالى الكل وللإنسان البعض، بل تتعدى ذلك الكم إلى الكيف: فعلم الله تعالى قديم وعليه يقوم الكون، وعلم الإنسان محدث ويقوم بالكون بعد إيجاده، وعلم الله تعالى لا يتغير إن بالزيادة أو النقصان، بينما علم الإنسان يزيد بما يستجد عليه من علم وتذكّر، ويقل / ينقص بما يعتريه من جهل ونسيان، ولهذا تكلم الفلاسفة عن العلم الكلي (بالكليات) والعلم الجزئي (بالجزئيات)، وهذا ما دفع أبا حامد الغزالي إلى الكلام في تكفير الفلاسفة القائلين بأن علم الله تعالى بالكليات لا بالجزئيات ضمن مسائل أخرى منها المعاد والقِدم.

(٢) د. زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف. ص ٢٥٨، ٢٥٩

وهي التي نعدها مسؤولة أمام الله والناس، وهذا الجانب الفريد من كيان الإنسان هو الذي» يشهد «بألا إله إلا الله»[١].

وثالث حقائق «الشهادة» هو وجود «الآخر» سواء كان هذا الآخر فردًا أم مجتمعًا أم أمة، فهؤلاء – جميعًا – يمثلون المحيط الإنساني الذي يعيش فيه من أعلن الشهادة، فالأمر» لا يقتصر على لفظ نلفظه بالشفاه، بل لابد أن يجاوز ذلك إلى معان نعيشها، وأترك لك تقدير الفرق الشاسع بين إنسان يتصرف كما لو لم يكن في الدنيا سواه، وإنسان يضع في اعتباره – عند كل خطوة يخطوها وفعل يؤديه – أن هنالك آخرين اعترف بهم ضمنًا حين شهد ألا إله إلا الله»[٢].

إننا لا نجاوز الحقيقة الإخلاقية الدينية إذا قلنا إن شهادة ألا إله إلا الله تولّد لنا نظمًا اجتماعية وسياسية أساسها قيم أخلاقية تهتم بالفرد قدر اهتمامها بالمجتمع ما يمهد للقول إنه من عنصر الشهادة «تنشأ لنا ضرورات ثلاثة: الحقيقة الدينية، والفردية الإنسانية، وروابط المجتمع»[٣].

والركن الثاني من أركان الإسلام هو الصلاة، والصلاة لها درجاتها التي ترتفع كلما كان المسلم يؤديها وسط «آخرين» ؛ ففي الصلاة حث

(١) د. زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف. ص ٢٥٩

(٢) د. زكي نجيب محمود: المرجع السابق. ص ٢٦٠

(٣) د. زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف. ص ٢٦٠

للفرد على أن «يصلي مع آخرين جماعة، فإن تعذّر ذلك طيلة أيام الأسبوع، أصبح الأمر فرضًا عليه يوم الجمعة ليتحقق وقوفه أمام الله مع «الآخرين»، وكأن في ذلك عهدًا مقطوعًا من الفرد أمام ربه بأنه يقرّ بألا حياة له إلا منتسبًا إلى هؤلاء ومتآزرًا معهم في صف واحد يستقبلون قبلة واحدة»[١].

والركن الثالث من أركان ألإسلام هو الزكاة، وهي قدر من المال – منقودًا أو منقولًا – يوجه لآخرين في المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان المسلم . والزكاة عبارة عن «تنمية بمعناها اللغوي، فأنت تنمو وتزكو وتسمو حين تعين» الآخرين» على النمو والزكو والسمو، فهي – الزكاة– ليست تبعة «اقتصادية» نحو الآخرين فحسب بل هي – الزكاة – في الوقت نفسه تبعة أخلاقية وروحية ... بل وحضارية أيضًا»[٢].

والركن الرابع من أركان الإسلام هو الصيام، وفي الصيام نجد المسلمين – جميعًا – يمسكون عن الطعام في وقت واحد ويفطرون في وقت واحد، ومن ثم يصح القول إن أمة الإسلام تكون – في رمضان – على صلة ورباط بعضها ببعض، ومن هنا «تزول الحواجز كلها بين الفرد والآخرين»[٣].

---

(١) د. زكي نجيب محمود: في مفترق الطرق. ص ٨٤

(٢) د. زكي نجيب محمود: المرجع السابق. نفس الموضع

(٣) د. زكي نجيب محمود: في مفترق الطرق. ص ٨٤

والركن الخامس من أركان الإسلام هو الحج، وفي شعيرة الحج هذه نجد أن «فكرة الآخرين أوضح من أن يشار إليها، على أن «الآخرين» هنا تتسع دائرتهم لتشمل العالم الإسلامي كله»[١].

ويختتم زكي نجيب محمود شرحه - العظيم - لمعاني الشعائر من الناحية الأخلاقية بقوله «فهل يكون المصري مصريًا وهو يغض البصر عن «الآخرين» وجودًا وحقوقًا ؟ وهل يكون المسلم مسلمًا إذا فعل؟»[٢].

(١) د. زكي نجيب محمود: المرجع السابق. نفس الموضع

(٢) د. زكي نجيب محمود: في مفترق الطرق. ص ٨٤